قصة قصيرة

قصة: متاع الحياة

أ.د. مجيب الرحمن *

في صباح اليوم الذي بلغ فيه السبعين، استيقظ إلياس قبل الفجر.

لم يكن في البيت صوت سوى دقات ساعة الجدار. ماتت زوجته منذ خمس سنوات، وابنه الوحيد يعمل في قارة بعيدة، ولا يعود لزيارته إلا في الأعياد، حين يسمح له عمله بذلك.

نهض ببطء، وأشعل مصباح المطبخ، ووضع إبريق الماء على النار.

كان يكره الصمت، لكنه صار رفيقه الوحيد.

وقف أمام النافذة ينتظر غليان الماء. في الخارج كانت الأشجار تلمع تحت آخر ضوء للقمر، والشارع خاليًا إلا من قط أشهب ينبش أكياس القمامة.

ابتسم وقال لنفسه:

"سبعون سنة... وماذا بقي؟"

كان سؤالًا عابرًا، لكنه ظل يرن في داخله طوال الصباح.

* الأستاذ والرئيس السابق، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيولهي، الهند.

لم يولد إلياس فقيرًا، لكنه عرف الخوف من الفقر مبكرًا، وأقسم في صباه ألا يدعه يقترب منه يومًا.

بدأ عاملًا بسيطًا في متجر للحديد، ثم صار تاجرًا، ثم صاحب مصانع، حتى أصبح واحدًا من أشهر رجال الأعمال في البلاد.

كان الناس يقولون:

"إنه رجل عصامي."

وكان يحب هذه الكلمة.

كل حجر في بيته كان يروي قصة صفقة، وكل لوحة على الجدار كانت ثمرة ربح، وكل قطعة أثاث كانت انتصارًا على خوف قديم من الفقر.

لكنه لم يكن يتذكر متى جلس آخر مرة مع ابنه طويلًا.

ولا متى أخذ زوجته في رحلة.

ولا متى زار أخاه المريض قبل أن يموت.

كان دائمًا يقول:

"حين أرتاح."

لكن الراحة كانت تؤجل نفسها كل عام.

في ذلك الصباح قرَّر أن يذهب إلى المصنع بنفسه. رفض أن يقود السائق السيارة.

أراد أن يشعر, ولو مرة, بأنه ما يزال قادرًا على الإمساك بالمقود.

عند إشارة المرور لمح طفلًا يبيع المناديل الورقية. كان في عمر حفيده تقريبًا.

أشار إليه أن يقترب, وناوله ورقة نقدية كبيرة.

اتسعت عينا الطفل وركض فرحًا, لكن الإشارة تحولت إلى اللون الأخضر, فانطلقت السيارة قبل أن يأخذ إلياس منه المناديل.

ظل ينظر في المرآة إلى الطفل وهو يلوح له بيده.

قال في نفسه:

"غريب... أشعر أنني أنا الذي أخذت شيئًا منه."

ولم يعرف لماذا قال ذلك.

بعد شارعين, اضطر إلى تخفيف السرعة. كان رجل مسن يحمل صندوق أدوات خشبيًا يعبر الطريق ممسكًا بيد طفلة صغيرة. كانت تحمل تحت ذراعها لوحًا خشبيًا قصيرًا, وتسير إلى جواره وهي تحدثه بحماس.

ضرب إلياس بيده على المقود في ضيق.

"الناس لا تعرف كيف تعبر الشوارع !"

انتظر حتى ابتعدا, ثم مضى.

في المصنع, كان العمال مصطفين لاستقباله.

صافحهم بسرعة وصعد إلى الطابق العلوي.

جلس خلف مكتبه وبدأ يراجع تقريرًا ماليًا. بعد دقائق شعر بوخزة صغيرة في صدره.

توقف.

ثم جاءت ثانية.

وثالثة.

رفع يده إلى قلبه.

وسقط.

حين فتح عينيه, لم يكن في المستشفى.

كان يجلس في قاعة واسعة لا يرى لها جدرانًا ولا سقفًا. وفي وسطها شاشة ضخمة سوداء, وأمامها كرسي واحد.

جلس.

فأضاءت الشاشة.

انتظر أن يرى شيئًا يعرفه.

لم يظهر رصيد في البنك.

ولا مصنع.

ولا عقد.

ظهر طفل صغير يبكي.

حدق فيه طويلًا حتى تذكره. كان ابن عامل طرده قبل ثلاثين سنة.

تغيرت الصورة.

ظهر شاب ترك الجامعة لأن إلياس رفض أن يدفع أجرة أبيه المتأخرة، مع أن المبلغ لم يكن يساوي ثمن ساعة في معصمه.

ثم ظهرت زوجته، جالسة وحدها ليلة عيد ميلادها. كانت المائدة معدة لشخصين، والشمعة تذوب ببطء. أما هو فكان في اجتماع استثماري.

ثم أمه...

كانت تنتظر زيارته الأخيرة.

أرسل إليها باقة ورد.

وماتت قبل أن يراها.

حاول أن يغلق عينيه.

لكن الشاشة لم تعد أمامه.

كانت في داخله.

وفجأة تبدلت الصور.

رأى الطفل الذي أعطاه المال صباحًا. كان يقف في صيدلية ويضع النقود على الطاولة, ثم يأخذ كيسًا صغيرًا من الدواء.

ورأى امرأة عجوزًا ساعدها ذات يوم على عبور الطريق.

ورأى عاملًا قديمًا أعاده إلى وظيفته بعدما تبين له أنه اتُّهم ظلمًا.

كانت الصور قليلة.

قليلة جدًا.

ومع ذلك شعر براحة غريبة وهو يراها, كأن قطرة ماء سقطت في صحراء.

قال صوت لا يرى صاحبه:

"هل تعرف ما هذا؟"

ظل صامتًا.

قال الصوت:

"هذا هو متاعك".

نظر إلياس حوله.

"أين بيوتي؟"

"بقيت".

"وأموالي؟"

"بقيت".

"ومصانعي؟"

"بقيت".

طال صمته.

ثم سأل بصوت خافت:

"إذن... ماذا جاء معي؟"

ولم يجبه الصوت فورًا.

عادت إلى الشاشة الوجوه القليلة التي رآها قبل لحظات.

فهم.

وفي مكان آخر من المدينة, كان رجل آخر يلفظ أنفاسه الأخيرة.

اسمه محمود.

نجار بسيط أمضى عمره في ورشة صغيرة تفوح منها رائحة الخشب والغراء.

وحين أضاءت شاشته, لم يظهر بيت ولا سيارة ولا حساب مصرفي.

ظهرت وجوه.

ظهرت طفلة كان قد صنع لها مقعدًا صغيرًا لتجلس عليه وهي تدرس.

كان يعرف أباها. مات الرجل وتركها مع أمها, ولم تكن الأم تملك ثمن مكتب للدراسة. جمع محمود بعض بقايا الخشب في ورشته وصنع لها مقعدًا وطاولة صغيرة.

ظهرت أرملة أصلح باب بيتها ولم يأخذ منها شيئًا.

وظهر شاب جاءه صبيًا لا يعرف كيف يمسك المنشار, فعلّمه النجارة حتى صار صاحب ورشة.

وظهر رجل كفيف كان يقوده كل صباح إلى المسجد.

ثم وجوه أخرى.

بعضها تذكره.

وبعضها لم يتذكر متى رآه.

وكانت الوجوه لا تنتهي.

وقبل أن تنطفئ الشاشة، ظهرت طفلة تسير إلى جواره في شارع مزدحم وهي تحمل قطعة من الخشب تحت ذراعها.

ابتسم محمود.

تذكرها.

كانت تريد مقعدًا جديدًا

.----------

في صباح اليوم التالي، نشرت الصحف خبر وفاة إلياس.

احتلت صورته مساحة كبيرة، وامتلأت الصفحات بأرقام ثروته وعدد شركاته ومصانعه. وتحدثت نشرات الأخبار طويلًا عن «الإمبراطورية الاقتصادية» التي بناها من الصفر.

وفي زاوية صغيرة من الصفحة الأخيرة، نُشر خبر وفاة النجار محمود.

لم يقرأه أحد تقريبًا.

لكن امرأة بكت.

وشاب أغلق ورشته ساعةً ودعا له.

ورجل كفيف ظل واقفًا أمام باب بيته ينتظر خطوات يعرف أنها لن تأتي.

وقالت طفلة لأمها:

"من سيكمل مقعدي الآن؟"

مرت السنوات.

هُدم قصر إلياس.

وبيعت بعض مصانعه, وانتقلت أخرى إلى ملاك جدد.

وتغيرت أسماء الشركات.

وأُزيلت صوره من المكاتب.

أما المقعد الخشبي الذي صنعه محمود قبل سنوات لطفلة فقيرة, فقد بقي.

كبرت الطفلة وأصبحت طبيبة. وحين انتقلت إلى بيت جديد أخذت المقعد معها,

على الرغم من أنه كان قديمًا, وفي إحدى قوائمه أثر كسر أصلحه محمود بيده.

وضعته إلى جانب مكتبها.

وكانت كلما رأته تذكرت الرجل الذي جاءها به وقال، وهو يمسح نشارة الخشب عن ثوبه:

"لا أملك أن أغير العالم يا ابنتي... لكنني أستطيع أن أجعل جلوسك إليه أسهل قليلًا"

وفي مساء أحد الأيام، دخلت عليها ابنتها الصغيرة، وسحبت المقعد وجلست عليه لتكتب واجبها المدرسي.

نظرت الطبيبة إليها طويلًا.

ثم ابتسمت.

ومدت يدها تتحسس الخشب القديم.

..... ***** .....